وزواله اذا أخبرها بالتحليل ، فكيف يجتمع في عقل او شرع تحليل هذا وتحريم المتعة — هذا مع ان المتعة ابيحت في أول الاسلام وفعلها الصحابة وافتى بها بعضهم بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونكاح المحلل لم يبح في ملة من الملل قط ولم يفعله أحد من الصحابة ولا أفتى به واحد منهم ؟

(ثم قال المصنف) « وليس الغرض بيان تحريم هذا العقد وبطلانه وذكر مفاسده وشره فانه يستدعي سفرا ضخما نختصر فيه الكلام وانما المقصود ان هذا شأن التحليل عند الله ورسوله واصحاب رسوله فألزمهم عمر بالطلاق الثلاث اذا جمعوها ليكفوا عنه اذا علموا ان المرأة تحرم به وأنه لا سبيل الى عودها بالتحليل . فانه لما تغير الزمان وبعد عهد الناس بالسنة وآثار القوم وقامت سوق التحليل ونفقت في الناس فالواجب ان يردّ الامر الى ما كان عليه في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وخليفته من الإفتاء بما يعطل سوق التحليل او يقللها ويخفف شرها . واذا عرض الى من وفقه الله وبصره بالهدى وفقهه في دينه مسألة كون الثلاث واحدة ومسألة التحليل ووازن بينهما تبين له التفاوت وعلم أي المسألتين أولى بالدين ، وأصلح للمسلمين .

« فهذه حجج المسألتين قد عرضت عليك ، وقد أهديت ان قبلها اليك ، وما اظن عمى التقليد الا يزيد الامر على ماهو عليه . ولا يدع التوفيق يقودك اختيارا اليه ، وانما اشرنا الى المسألتين اشارة يطلع العالم على ماوراءها والله التوفيق » اه

(القسم العلمي)

نظام الحب والبغض (تابع ويتبع)

(٢) ماهو الحُسْنُ ؟ — قد عرفتم بالذي قلناه في تعريف الحَسَنِ ماهو الحُسْنُ ، وبقي ان أقول لاجل تذكير القارئ بأصل الموضوع انه هو الزينة من غير نظر منا الى الفرق بين الحسن الذاتي والحسن الصناعي .

(٣) ماهو الاستحسان ؟ — هو انبساط النفس لذلك الشيء الذي وجدت فيه ما يناسبها . ليست الصعوبة في تعريفه بهذا الرسم وانما الصعوبة في معرفة ان الاستحسان يحصل للمرء بالبداهة أو بالنظر والتأمل وقد سبق شيء من الاشارة الى هذا الامر

ولكني لأراه مستغنياً عن زيادة الشرح . أما استحسان بعض المحسوسات فيحصل للبعض بالبداهة وتعقبه محبة . ولهذا السرّ ظن البعض ان الحب يكون اضطراريا على ان هذا السر وان بقي غامضاً لايثبت هذه النظرية بمثل هذه الحوادث الفذة لثبوت ضد هذه النظرية ببراهين حسية وعقلية معاً . وأما استحسان كل المعقولات فمن أعمل التفكر نتيجة نظر وتأمل ومن اهمل التقليد نتيجة ثقة بالمقلدين . والاولى ان لايعد استحسان هؤلاء استحساناً لاننا اذا أدخلناهم في صف من لافكر لهم من المخلوقات لم نكن عملنا غير الصواب لأنه هو المطابق لروح الواقع ونفس الامر .

(٤) ماهو حب المستحسن ؟ — تقدّم تعريف الحب وليس سؤالنا عن تعريفه بل عن ذلك السر المودع في طبيعة النفس من محبة أشياء تعتبرها جميلة . ولعلّ ذلك السر هو شوقها الطبيعي الى ماوراء جسمانية المادة وما يلحقها من الجمادية المحضة .

(٥) لماذا نستحسن ؟ — هذا السرّ مودوع في نفوس الخاصة والعامة من بني الانوع . ولما اوتينا المزية العظيمة التي تسمى « الارادة » اراد الفاطر ان تجلى فيناظاهرة باهرة فانقسمت الاشياء في نظرنا كافة الى ماتتوجه نحوه ارادتنا وهو مانستحسن والى ماتنصرف عنه وهو ضده . فهذا هو السرّ في كوننا نستحسن .

(٦) لماذا نحب الحَسَنَ ؟ — يظهر بالذي قلناه سر حبنا الجميل ونزيد عليه علة لايتوقف في فهمها انسان وهو اننا نحب الحسن لنعمل . فلولا ذلك لقنعنا بما تنبت الارض من كلأ ، وما تفيض به من ماء . ويظهر من ملاحظة سير الماضين والغابرين ، وسنن الوجود في الاولين والآخرين ، اننا لم نخلق لمثل هذا بل خلقنا لاسرار عظيمة لا تظهر فينا الا بحبنا الحُسْنَ والحَسَنَ .

(٧) لماذا نختلف بالاستحسان ؟ اذا كنا نحب الجميل لنعمل فنحن نختلف بالاستحسان لتختلف اعمالنا . على ان لاختلافنا في الاستحسان عللاً أخرى منها اختلاف الامزجة . وبيان السر في اختلاف الامزجة لايبعد عن صدد علمنا هذا ولكنه قد يبعد عن صدد هذا الفصل او قد يبعد بنا عن الغاية التي أشرفنا عليها . وكذلك لاختلافنا في الأعمال علل أخرى ولكن الذي ذكرناه هو من أقدم الاسباب .

(٧) ماهو عشق المستحسنات الذي يميل بكل محب مستحسن فيغرم به ؟ — يبقى علينا

سؤال عن أمر آخر غير الحب المعتاد وهو العشق الذي مبلغ العلم فيه انه أعظم درجات الحب ومنتهاه . والجواب على ذلك في غاية السهولة وهي ان النفوس قوابل ، والواردات عليها فواعل ، وبعض النفوس أشد قبولا وانفعالا لما تعرضت له من الواردات فيصيبها العشق الذي هو أعظم الحب في حين ان كثيرا من اخواتها اللائي يتعرضن لمثل ما تعرضت هي له لا يصيبهن الا الحب البسيط وكثيرا من غير أولئك لا يصيبهن شيء ما .

هذا وان فيه لبلاغا في بيان الموضوع ، وكشفا لبعض السر المودوع ، ويحار فيه من لم يرد من البيان مشارعه ، ولم يذق من التقرير مشاربه ، واولئكم ليسوا من أهل المنار ، ولا نلمهم في مثل هذا الكلام المدار ، وحسب اولئكم مما تقدم ان يسمعوا هذه الخلاصة :

« لولا حب الزينة لما كان من حاجة الى أكثر الصنائع . ولولا كثرة الصنائع لما توفرت أسباب الاجتماع . ولولا الاجتماع لما تبودلت الافكار . ولولا تبادل الافكار لما حصلت المعارف الإنسانية . ولولا المعارف الانسانية لكانت حياة الانسان كحياة البهائم . »

ولو شئنا لشرحنا هذا الكلام بفصول كثيرة ولكننا تقللنا منه بما سبق ، وفي هذا الترتيب الذي وضعنا وضوح تام ، وللعمرانيين ههنا شركة في البحث والبيان ، وتركنا لهم وظيفتهم التي هي البناء بعد اداء وظيفتنا التي هي الاساس .

ولكيلا يفوتنا النصيب من تصحيح افكار اولئك الذين نعاصرهم ناقمين على حب الزينة ونعلم انهم سينقمون منا تمثيلنا حب الزينة هذا التمثال الذي ستراه البصائر فخيماً ، وكأني بهم رافعين عقيرتهم يقولون هل يجني الناس منه الا الدأب والكد العمر كله في طلب الفواني ، وهل في سبيل هذه المحبوبات التي لا تنتهي الا الوقوع في أنواع الرزايا المعروفة ؟

لكيلا يبقى هذا الاعتراض بلا جواب نقول : ان الذي قلناه هو وصف لامر واقع على سبيل العموم والشمول لا حث وحض على حب الزينة ، وان الذي نعلمه ان ذلك الامر الذي وصفناه طبيعي لا يصده عن النفوس ان يتقمم الناس عليه كما ان الاكل مهما سببناه لا نستغني عنه ، ثم اننا نعلم انه لا يقول ذلك القول الا واحد من ذينك الاثنين الضدين المتسفل في دركات المواجز من الحيوانات التي تكره الحركة وتهوى السكون ، والمتسامي بعقله الى ما فوق الفواني المتجافي عن الزوائد من مقومات الحياة المادية تشوفاً الى المعقولات العالية . ومن عجب ان يجد في قولهما مع اختلافهما في نتيجتهما . ولم يكن

ذلك الا لأن الثاني فاته حكمة الاعتبار بأصل الفطرة وسرها، وفاته النظر الى الواقع ونفس الامر، ولم يبق علينا الآن نظر هل يجوز لنا ان ننهى عن حب الزينة والجمال؟ والجواب: لا يجوز لنا ذلك لانه لا يجوز لنا ان نحاول العبث. وهذا هو وجه الحقيقة الذي لاح لاهل علمنا فشهدوا كما رأوا. وعلماء العمران ستراهم يقيمون اشد النكير على رجل يقول بجواز النهي عن حب الزينة. ونحن في امن من هذا لوغى لاننا لا نزيد على قولنا: «انه لا يفيد» وليس في هذا القول مصادمة لقاعدة ان الحب يدخل تحت «نظام» لاننا لم نخرجه عن النظام بهذه الكلمة ولكن الآخرين يريدون ان يخرجوه عن الوجود لا عن النظام فقط. ويوضح هذا مثال: «اذا قلنا لا يجوز النهي عن الأكل مطلقا لانه لا يفيد اذ هو امر بتغيير الفطرة» فلا يفهم احد قط من هذا الكلام انه لا يدخل الأكل تحت نظام، فلينظر ذو فكر ما يقول:

وقد يذهب ظن القارئ الى ان محرر هذه الكلمات رجل من غلاة المفتونين بهذه الصور المتحولة الفانية او تلك المادة الجماد الخامدة واني لا احاسب الناس على ظنونهم ولكن من يحاول التعريف بشيء عن نية سافية يحرص على مقصوده اكثر من ذي اجر واني حريص ان يأخذ قارئ كلامي بالنصيب الاوفى من علم طبيعة النفوس من حيث المجموع مع مراعاة حالاتها في الاجتماع وحالاتها الشخصية فأني على يقين ان هذا لم يورث صاحبه سلامة ذوق وسلامة صدر وسلامة فكر ويؤديه الى الاعتدال الذي هو محور نظام الاصلاح،

ومن أجل ذلك اذكر القارئ بما استحفظته اياه في صدر الكلام ومنه يعلم أن قليلا من التدبر يكشف عوار كثيرين من الذين كتبوا في الاخلاق والشرائع ويجلي محاسن المحسنين. ومن هنا اخالف الذين ينهون عن صرف شيء من المال في سبيل حب الزينة ولا أجد في مذهبهم ذلك رائحة من الحكمة قط بل هو جهل بطبائع الاجتماع فانه لن يعدم الظاهر ما يستفيض به من الرائج، والا لعدم البائع من يبتاع.

ومن المؤمنين بما قررناه قائل يقول: قد يحتاج الفرد وهو سابح في الاوهام بحب الزينة الى من ينبهه الى الاخطار وهو حق ولكن عندي ان يكون المنبه من نفسه في مثل هذه الحالة خيراً من ان يكون من آخر. لنربح في هذا التمرد أمرا هو أعز وأغلا من المال الذي نخسره. ذلك هو التفكر وصدق الارادة في مباشرة الاشياء. ولا

تلك بأنانا سنلقي أسارى كثيرين في هذه المعارك قد قيدتهم الشهوات الكاذبة بأغلال الخسار، وقذفت بهم الارادات المريضة في مهاوي الدمار، ولكن أن نعدم امثال هؤلاء الاسرى وان كثروا خير من ان نعدهم من ابطال الجهاد في هذه الحياة . وخير من ان لا نعدهم وكثيراً ما يختلف طب النفوس عن طب الابدان لان أحدهما يعالج مرضاً محسوساً بعلاج محسوس . والآخر يداوي مرضاً معقولا بدواء معقول ولا طباء النفوس في هذا الباب أدوية لو استعملت شافية ولكن الناس اعاروها آذاناً صما وُيريدان يكون لهم علاج من المحسوسات ذلك ما تعطيه مجاري الاحوال وينتج صحة التفكر وسلامة الارادة .

وآخرون سيقولون لقد أسرف هذا وكاد ان لا يرى في الاسراف شيئاً مذموماً . كلا ان الاسراف مذموم عندي كما هو عند الناس كافة ولكن الذين ينهون عنه هو ما دون الاسراف وهو الذي لا انهى عنه . ولا أريد من هؤلاء أكثر من ان يعلموا انه لولا ان نصرف المال فيما زين لنا لما وجد المال . ولكن علم هذا صعب عليهم ودونه بأن نعلمهم ان المال ليس شيئاً غير قيمة جملة الاعمال التي يعملها النوع واذا علموا ذلك فليتذكروا انه لولا حب الزينة لما كان من حاجة إلى اكثر الصنائع ، لولاه لاقفلت أسواق ومصانع يعمل فيها حاج للناس من غير اللوازم الضرورية التي لا تجاوز ما مثلنا به آنفا من الغذاء والكساء والاواء .

ما الذا زين هؤلاء بعض هذه الاسواق والمصانع ودوران فلك الاعمال على هذه الاقطاب الحالية وما دانا هافي الماضي وما سيفوتها في الآتي فما البأس علي اذا دار الفلك على حسب احلامهم وانما البأس على قوم يلعب بهم الهوس ان يروا الخير والسعادة في أولي السير من الحياة وهي سيرة الانس بالاوجار والاحجار ، والفزع من خطور الاشباح وهبوب الارواح (*)

﴿ نتيجة عظيمة ﴾

وما قررناه أساس متين لبناء نظامي الاخلاق والشريعة . يبنى عليه في الاخلاق ذم جمود النفس الذي من لوازمه نسيان الحظ من الحياة النوعية الا ما وجدت عليه الآباء . وذم غلبانها الذي من لوازمه تجاوز الحدود التي وضعت لحفظ الحقوق . ومدح الاعتدال . وفي التمهيد نحوت المنحى الذي يفهم منه ذم جمود النفس لانه الغالب في مشرقنا . ويبنى عليه في الشريعة الحرية في المطاعم وموائدها ، والملابس وازيائها ،

(*) جمع ريح وهو يأتي هكذا كما يأتي جمعا المروح

والمباني واشكالها . وغير ذلك من الحاجات اللوازم والتوابع وكل شريعة لم تُبْنَ في هذه الابواب على مثل هذا الاساس لايقوم لها بنيان . ولا يوفق الناس أعمالهم على احكامها وان تلوا حروفها . واذ كانت كل شريعة تنسخ ماقبلها كانت تقرب من هذا المعنى بحسب ترقي النوع ولذا كانت الشريعة الاخيرة حائزة هذا المعنى تماماً .

وحرم منها مايضر بصحة العموم . ومايصادم نفعاً عاماً أو حقا خاصا . وما يجمع علماء الاخلاق على مضرته بجوهر النفس . وهـذا التحريم في الحقيقة معين على صيانتها وحسن التصرف فيها والمطلعون سيدركون ماوراء هذه الجمل من التفاصيل . ومن عداهم سيأتيهم التفصيل في مواضع متعددة وحسبهم الآن ان يتدبروا هذه النتيجة ويفكروا فيها بفكر تقي .

﴿حب التميز﴾

في الفطرة زيادة على حب الزينة حب التميز فلولا هذا الثاني لبلغنا نهاية فيما نحب من الزينة أو غيرها ولكن هو الذي أبعد الغاية على الطالبين .

والذين هم أشد حبا للزينة هم اشد حبا للتميز ، وعند التأمل في آثار هـذه الطبيعة نجدها ينبوعاً للخيرات والشرور معاً . وهكذا نجد الشر موجودا دائماً في منابت الخير ولذلك كان تحصل الخير في هـذه الحياة عناءً كبيراً كالماء في تحصيل الخمطة من بين الشوك ثم تميزها من الزؤان بل هو أكبر . ولكن أجر هذا العناء عظيم وهو بلوغ الانسان كماله المعـدله . وقد يقصر حجانا الآن عن تصور ذلك الكمال وما من يتقدم الا معاوناً لمن يتأخر .

وفي خلق الانسان آيات للمتدبرين ، واسرار للمعتبرين ، منها تكريم هذه الصوامت التواطق بلسان الحال عن ان تكون عبثاً اذ عـلى يده تظهر خواصـها وفي فكره وبصره يتجلى جمالها المعقول والمحسوس تحقيقاً أو اعتباراً أو تخيلا . ولحب التميز الحظ الاوفر في استخدام الفكر في هذه الشؤون . فهو الذي يبعث الفكر في عالم المحسوسات والمتخيلات دائما يرتاد للنفس ماهو غريب عزيز الوجود مما يود كل أحد ان يقتنيه أو يتحله . وهكذا كانت زيادة الاول على الآخر ويكون مالا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب الاولين .

والحاصل ان حب التميز ميزان في كفته الواحدة أمر نسميه حسنة وهو ارتقاء الحياة النوعية . وفي كفته الاخرى أمر نسميه سيئة وهو حرص النفوس على الاستبداد.

والناس يفهمون من هذه الكلمة — الاستبداد — ان المقصود به عدم المشاورة وهذا المعنى جزء مما تدل عليه هذه الكلمة التي معناها الحقيقي نزوع النفس للحرية المطلقة التي من جملتها تقييد حرية الغير وغصبها وهذا هو وجه شناعته ومن أجل هذا كان عنصر الشرور المادية والادبية .

وقد كدنا ان نيأس لما علمنا ان هذا العرق الضارب في اعماق الطبيعة البشرية لايمكن استئصاله بالقلع لولا ان تبين لنا أنّ في ازاء هذا الشوك زهراً ولولا ان ثبت لنا انه يمكن تخفيف مايجم عنه بتتبع الفروع وقطع ماأمكن قطعه منها والربانيون من الحكماء أشد الناس عداوة للذين يستبدون ذلك بما عرفوا من الحق، وبما عطفوا على الخلق ، وبما تدفعهم اليه قوة العلم ، ومنّة العزم ،

والاخلاقي حسبه ان يذكر المستبد بثلاثة أمور لانفارقه ولاغيره : العجز بالذات ، والاحتياج للغير ، واستحالة بلوغ الغاية ، وان يذكر المستبدّ عليهم بثلاثة أمور أيضا الضعف بانحلال الرابطة ، والقوة بالتعاون ، والفوز بالثبات والصبر .

والسياسي وهو البحاث عن كل روابط الاجتماع لاأستكثر منه ان يحمل أوزار الوغى ان استطاع في ردّ كيد المستبدين الذين وضعوا أعمالهم في كفة السيئة من حب التميز وبئس ماأكتسبوا لانفسهم من البغضاء . وللمذعنون لهم شر مكاناً وأضل عن سبيل الحياة النوعية . وأقرب الى الهوان من الانعام وفي هذا بلاغ لعلهم يتذكرون .

(تتمة بقية) ع . ز